حدود البلاغة العربية و تطور المفهوم

د. فريدة بوزيداني
المدرسة العليا للأساتذة _ بوزريعة

تمهيـد:

عندما نتحدث عن النقد الأدبي العربي فإننا لابد من أن نفتح بابا واسعا على كل ما يرتبط به من خلال الإنتاج الفني، فالنقد مرتبط بعلوم كثيرة خصوصا مع انفتاحه على النقد الغربي و مرتبط بمباحث متعددة كالتاريخ و الأدب المقارن و الفنون الأخرى كذلك بمناحي الحياة الأخرى، كالسياسة و الاقتصاد ، و لأن الأدب أداته هي اللغة فقد تضافرت جهود النقاد لأجل استنكاه كل مقومات هذا النص و الوصول إلى سر جماليته و الاقتراب من فهمه.

من هذه المباحث الهامة لقراءة النص الأدبي كان لا بد أن تتضافر جهود النقاد للاستفادة بما منحته جهود المشتغلين على البلاغة و توظيفها أحسن توظيف خدمة للدرس النقدي , و لأن البلاغة هي "الكلام الجيد السهل الذي لا عيب فيه" [1]، فإنه لزاما على الباحثين أن يركزوا على مواضيع أخرى و أن ينفتحوا على مجالات أوسع لها علاقة بالحياة الإنسانية ، كالسياسة و الاقتصاد و الإعلام و الاتصال و العلوم الأخرى و كل ما من شأنه أن يساهم في تسهيل الحياة، و التشارك فيها بين البشر.

نبدأ أولا بتعريف هذه العلوم :

1. تعريف النقد:

عندما نرغب في التعرف على النقد الأدبي لا بد من أن نمر على تعريفه اللغوي و الاصطلاحي، فالنقد لغة هو تمييز الدراهم وغيرها للكشف عن صحيحها و زائفها، أما اصطلاحا : فهو دراسة الأعمال الأدبية ، ثم إصدار الأحكام النقدية المناسبة عليها فهو يقوم بدراسة النصوص الأدبية دراسة كاملة , مع الوقوف على كل المؤثرات العامة أو الخاصة بها و عليها ،و هو يتضمن قواعد نقدية يستفيد منها الأديب قبل إنشاء النص الأدبي وبعد إنشائه ويقوم بتحليله بناء عليها إن موضوعات النقد تجمع بين روح العلم وروح الفن .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الناقد ، هذا المشتغل على النصوص النقدية ، فإذا لم يكن له من فضل سوى فضل رد الأمور إلى مصادرها و تسميتها بأسمائها لكفاه ذاك ثوابا مثلما يقول ميخائيل نعيمة ، "إلا أن فضل الناقد لا ينحصر في التمحيص و التثمين و الترتيب. فهو مبدع و مولد و مرشد مثلما هو ممحص و مثمن و مرتب.هو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد. حتى صاحب الأثر نفسه ..."[2]

إذا ما أردنا التعرف على تاريخية النقد الأدبي فالنقد الأدبي " بمعناه المتخصص قد بدأ مع بعض أفكار أفلاطون، و لكن شهادة ميلاده الحقيقية لم تكتب إلا مع ظهور (فن الشعر) لأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد ، وهو الإجماع الذي يربط ميلاد النقد بالفكر الفلسفي المنطقي العقلاني من البداية ..."[3]

2. تعريف البلاغة:

إن البلاغة من العلوم التي حظيت عند قدمائنا باهتمام كبير نظرا لانتباههم لأهميتها في فهم النص القرآني و اللغة المنتجة و أيضا في إنتاج النصوص الإبداعية ، و لا تخلو الدراسات الغربية بدورها من التوقف المثمرعند جوانب البلاغة في نتاجاتهم الأدبية ، و لا شك إذن و انطلاقا مما تزخر به المكتبات أن نجد وقفة عند قيمة البلاغة في النقد الأدبي ، إذ لا تقوم القائمة للدرس النقدي في أغلب مدارسه إلا بقراءته للغة النص الإبداعي و هذه الأخيرة لا تمنح نتائج مضيئة إلا عندما تتفحص الجوانب البلاغية في ذلك النص،،، إذ لا نص إبداعي دون انزياح في اللغة و في الدلالة ...

ورد في لسان العرب، في باب الباء، "بلغ الشيء يبلغ بلوغا و بلاغا: وصل و انتهى، والإبلاغ : الإيصال و كذلك التبليغ، و البلاغة: الفصاحة و البَلَغ و البِلِغ: البليغ من الرجال بلغ و بلغ : حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه"[4].

فالبلاغة تركز على دراسة الكلمات المفردة والجملة ، وتعنى بالصياغة الفنية وسلامة الجملة في ذاتها من العيوب ، ومطابقتها لمقتضى الحال كما تحوي البلاغة علوما أخرى يستفيد منها الأديب قبل إنشاء النص وتنتهي مهمتها عند هذا الحد ، و هذه الموضوعات هي ، علم المعاني، و علم البيان ، و علم البديع.

"و مع أن لكل دوره... إلا أن لعلوم البلاغة آثارها الحسية و النفسية التي تتصل اتصالا مباشرا بمناحي الحياة المتعددة ، دينية كانت ، أو اجتماعية، أوسياسية ... "[5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3. التطور التاريخي لمفهوم البلاغة عبر الزمن (في الدرس العربي):

لقد تطور مفهوم البلاغة على أيدي الجاحظ و العسكري و ابن سنان الخفاجي و عبد القادر الجرجاني و ابن الأثير و السكاكي و الخطيب القزويني و أثراها كل واحد بما منحته قدرته الفكرية على استيعابها و قد قسمت البلاغة إلى علومها الثلاثة : علم المعاني و علم البيان و علم البديع . و ظل الأمر هكذا حتى عصر النهضة العربية.

أما في العصر الحديث فقد أطلق أمين الخولي على البلاغة مصطلح (فن القول) و رأى الدكتور محمد زكي العشماوي أن البلاغة في أصلها تميز بين الجيد من الرديء من الكلام ، و هي التي تساعدنا على تربية أذواقنا و تنميتها، و تمنحنا الوسائل التي تساعدنا على النفاذ إلى روح العمل الفني و رؤية خصائصه و تذوق أساليبه.

- علم البديع:

البديع هو الذي يقوم بدوره في أداء المعنى فيقف جنباً إلى جنب مع الصور البلاغية، و ترتيب مواضع الكلمات في السياق.

- علم البيان:

أما علم البيان فهو البلاغة و القدرة على التعبير و الإقناع و التأثير.

أما أقسام علم البيان فهي أربعة: التشبيه و المجاز، و الاستعارة و الكناية، و تزخر البحوث التي تعرض أجزاء علم البيان هذه بالأمثلة و الشواهد القرآنية و الأدبية (الشعرية و النثرية).

يعد عبد القاهر الجرجاني مطور البحث البلاغي، فقد تعمق في بحوث هذا الفن شرحا وإيضاحا وتطبيقا، من خلال التحليل الفني للنصوص والأمثلة. لهذا نجده ، في حديثه عن علم البيان، يبرز أهميته ويصف فروعه لكنه في الوقت ذاته لم يهتم بتقديم تعريف اصطلاحي له، يقول: " ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأسبق فرعا، وأحلى جنى وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان. الذي لولاه لم تر لسانك يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدرر وينفث السحر"[6] .

" فقد عمد النقد العربي منذ محاولته المعيارية لتحديد طبقات فحول الشعراء، مرورا بموازناته بين شاعرين على أسس نصية صرفة، وانتهاء بنظرياته الدقيقة في اللغة و المجاز و الاستعارة إلى بلورة حقيقتين معياريتين أصبح لهما فيما بعد دور أساسي في الثورة النقدية الحديثة. أولاهما ضرورة اعتماد النقد على معايير نصية مستقاة من داخل النص نفسه ، ومن عناصر تكوينه الأساسية، و ثانيتهما أن النص الأدبي مشيد من الكلمات ، و لذلك فإن أي تعامل معه لا بد أن يعتمد على تحليل اللغة كبنية مولدة للمعاني و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدلالات قبل أي شيء آخر من خارج العملية النصية، أو إذا ما شئنا استخدام المصطلح النقدي الحديث يمكن التعبير عنهما بالبنية و الخطاب"[7] .

4. أهمية البلاغة في النقد الأدبي:

إن البلاغة والنقد يشتركان في الميدان الذي يشتغلان عليه و هو (الأدب) واشتراكهما سمح بتداخلهما، ولاسيما في التراث العربي الإسلامي، الذي اختلطت فيه المباحث البلاغية والنقدية، إن النقد العربي القديم في غالبه نقد بلاغي، و لأن الأدب استعمال خاص للغة، هذه اللغة التي ظهر الإعجاز الكامل فيها في النص القرآني، فكان هذا النص قبلة للدارسين و الباحثين في علوم البلاغة خاصة الإعجاز البياني من خلال علم البيان الذي اعتمد عليه المفسرون والمتكلمون وعلماء الإعجاز، حيث بحثوا في أسلوب القرآن الكريم للكشف عن وجوه الإعجاز.

إن النص الأدبي العربي هو أحسن أرضية بعد القرآن الكريم لفنون البلاغة العربية المختلفة ، و قد كان على مر الزمن منذ عصر المعلقات إلى يومنا هذا ببلاغته مصدر فخر لهم و جاء الإسلام ليؤكد أن " البيان هو السحر الحلال و البلاغة هي التي تمكن المتكلم أن يأسر المخاطبين حينما يخترق بيانه و أسلوبه ألبابهم و قلوبهم،،، "[8]

5. مسائلة جديدة للبلاغة العربية في ضوء نظيرتها الغربية (المقاربة الأمريكية):

قبل البدء في عرض هذه المقاربة، حري بنا أن نناقش أولا بعض المقولات التي نراها أكثر من ضرورية، متعلقة بالبلاغة صحيح لكنها مرتبطة أكثر بالتطور الزمني و مقتضياته، من فكر و فلسفة و علوم و دراسات و نظم اقتصادية و سياسية ... الخ، فهل سنواصل الانتظار من مبدع اليوم أن يشبع نصه بالأساليب البليغة ليصل هذا النص إلى قارئه أليس من الأجدر بنا أن نبعد البلاغة عن النص الأدبي لان طرائق الإبداع فيه مختلفة اليوم عما كانت عليه في السابق، فالإبداع اليوم في الشكل، والفضاء، و الصور الفنية ، ...الخ، إنما البلاغة بأساليبها ستجد الفضاء الكامل لها أكثر –من أي وقت مضى، في زمن العولمة، و الفكر المفتوح على العالم– في نصوص اتصالية، وخطابات سياسية، واقتصادية، وإعلانية، ... و السبب بسيط لأن موازين القوى اليوم تغيرت، و رغم أن الوضع في العالم العربي بعيد جد البعد عن التطبيق الفعلي لمثل هكذا مطلب بلاغي، إلا أن الغرب يؤمنون كل الإيمان انه لا استمرار للحكم و السيادة و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحرية و العدل دون أن يوصلوا مطالبهم بأساليب بليغة مؤثرة مسيطرة صارمة ، تماما مثلما تسوق كبريات الشركات العالمية منتوجاتها بكل حرية و صلابة، و ما يحدث في عالمنا العربي اليوم أصدق دليل على إلزامية تغيير مواقفنا من البلاغة مفاهيم و تطبيقات، فرئيس البلدية الذي لا يجيد مخاطبة سكان حي غاضبين من انقطاع الماء عن حيهم، لن يجد حتما طريقة مثلى لثنيهم عن القيام بأية أعمال شغب، فتختلط عليه الأمور و قد يصل إلى مالا تحمد عقباه، و توسع بذلك إلى الرئيس الذي لا يجيد مخاطبة شعب ثائر بأكمله، و بالتالي سيترك المجال واسعا لكل أنواع الخطابات التي ستملأ هذا الفراغ حتى تلك التي تسمى "إرهابية".

يعد مكرو الأمريكي أول من تكلم عن هذه الفكرة الجديدة بعدما نشر في عام 1989 دراسته «البلاغة النقدية: النظرية والممارسة» التي قدم فيها مشروع البلاغة النقدية إلى الأوساط الأكاديمية الأمريكية. "ويبدو أن دعوته لتأسيس مشروع البلاغة النقدية قد لاقت استجابة من بعض دارسي البلاغة الأمريكيين".[9]

تعود أهمية هذا المشروع إلى أسباب متعددة، لعل أهمها هو أن العلاقة بين البلاغة و الأدب في الدراسات البلاغية الأمريكية قد فكت منذ أكثر من نصف قرن" وليس أدل على ذلك من أن البلاغة، في معظم الجامعات الأمريكية في الوقت الراهن، تُدرَس وتدرَّس في أقسام علوم الاتصال وليس اللغة أو الأدب" [10]، أما في العالم العربي، فتُدرَس البلاغة وتدرَّس في أقسام علوم اللغة والأدب.

نعلم أن مصطلح البلاغة يضرب بجذوره في عمق الحضارة اليونانية القديمة، لكن ما ألصقه الفيلسوف اليوناني أفلاطون بها من قصور جعلها تنحصر و تتقهقر، و بالتالي لم يعرف هذا المصطلح أي تطور ما عدا بعض المحاولات اللاحقة و التي لم ترفع كثيرا من مستواها على كل الأصعدة.

تبقى البلاغة مثلما كانت على مر الأزمنة مركز اهتمام في إطار الدراسات البلاغية " من إنشاء الخطاب إلى نقده، حيث إن مهمتها تكمن في الانخراط في نقد مستمر ثابت للخطاب. هذا النقد يُمارَس بشكل أساس على الخطابات العامة، مثل المقالات الصحفية والبرامج الإذاعية والتليفزيونية..الخ، التي يرى مكرو أنها وإن لم تكن في حد ذاتها نصوصا راقية فإنها تمارس تأثيرا كبيرا، خاصة في تشكيل الثقافات الشعبية. ويتخذ مشروع البلاغة النقدية من هذه الخطابات العامة مادة لتحليله، خاصة تلك التي تسهم في إنجاز القهر والقمع" [11] . أما فيما يخص بعض أشكال الخطابات العامة التي يتجلى فيها القمع والقهر فيرى هؤلاء " أن القمع والقهر يتجليان في خطاب سياسي يبرر اتفاقية تجارية سوف تقلل فرص العمل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتضر بالبيئة بالقول بأنها تحافظ على القدرة الاقتصادية التنافسية للأمة " [12] و هذه الخطابات تنسب إلى القمع والقهر لأنها:

" 1) تعطي الأولوية للأهداف بعيدة المدى للطبقة الرأسمالية على حساب الاحتياجات المادية الملحة للعمال الأمريكيين، ...

2) تقوم بالتعمية على سلطويتها...

3) تُلبِس المصالح الخاصة ثوب المصالح العامة...

4) تبرر أشكالا متنوعة من الهيمنة والعدوان الفرديين،..."[13]

عبر كتاباته المتعددة قدم مكرو اقتراحات متنوعة لما يجب أن تقوم به البلاغة النقدية. "فهناك مهمة داخلية للبلاغة النقدية تتمثل في إعادة خلق أو إنشاء حجاج يحدد التكامل بين السلطة والمعرفة، ويصور بدقة دور السلطة/المعرفة في تشكيل الممارسات الاجتماعية ". و لا تتحقق هذه الوظيفة إلا "عن طريق عمليتين متصلتين، الأولى: مساءلة الهيمنة، والثانية: مساءلة التحرر. والعمليتان تستهدفان بدورهما كشف الطرق التي يسهم الخطاب من خلالها في إنتاج القهر الاجتماعي والسياسي، ومن ثم تأسيس متطلبات التحرر منه ...فمساءلة الهيمنة تفهم السلطة على أنها قمعية، تقوم بتقليص ممكنات الفعل الإنساني، أما مساءلة الحرية فتفهم السلطة على أنها منتِجة، أي أنها قوى إيجابية تؤسس علاقات اجتماعية وترسخها"[14]

الخطاب المعني بهذا الطرح هو خطاب واحد و التميز الوحيد هو وجه هذا الخطاب فهو من جهة خطاب قمعي و من جهة هو خطاب الحرية "حيث إن خطاب التحرر ليس إلا خطابا سلطويا يمارس هيمنة وقهرا..إلخ. وأي خطاب يتعارض معه أو يناقضه سوف يكون هو أيضا خطابًا سلطويًا"[15].

يرى مكرو أن البلاغة النقدية " تُمكِّن المرءَ من خلق معنى من خليط الخطابات التي تميز تجربة ما بعد الحداثة"[16].

نفهم من هذا الطرح الجديد ان الخطاب العربي معني هو الآخر بمثل هذه المساءلة البلاغية و عليه يجب أن نحيط علما ببعض أدوات مشروع البلاغة النقدية التي تمثلت في مفاهيم النظرية وبعض المبادئ الخاصة بممارستها. "تتضمن قائمة المفاهيم عددا محدودا من المفاهيم المأخوذة عن أدبيات النظرية النقدية بمرحلتيها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبكرة والمتأخرة، وبعض توجهات ما بعد الحداثة، خاصة منهاج فوكو في تحليل الخطاب، مثل: السلطة ...، الخطاب ...، المساءلة ...،الهيمنة، التشظي ..."[17]

تصبح البلاغة إذن نقدا، و ينفتح النقد ليصبح ممارسة حرة مفتوحة على كل الاحتمالات " تتحرك هذه الممارسة، وفق مكرو، تبعا لمقتضيات البحث، وتنظمها مبادئ للممارسة"[18]

هذه المبادئ هي:

"**المبدأ الأول:** النقد ممارسة وليس منهجا. وعِلة كون النقد ممارسة هي أن عملية الفهم (وهي العملية التي تحاول "المناهج" النقدية تنظيمها) لا تنفصل عن عملية التقييم. ولا تسعى البلاغة النقدية إلى تقديم وصف محايد للرسائل أو التشكيلات الخطابية. إنها تقييمية دائما، ومن ثمَّ فإنها شكل من الممارسة غايته التأثير في العالم.

المبدأ الثاني: الخطاب السلطوي خطاب مادي. هذا المبدأ يؤكد القدرة الإنشائية للممارسة الخطابية. وجوهره أن: الخطاب يقوم بأكثر من وصف العالم، إنه يخلق ما يُدرك بوصفه حقيقة بالنسبة للعالم.

المبدأ الثالث: تكوِّن البلاغة معرفةً اعتقاديه ....، وليس معرفة ابستمولوجية...

المبدأ الرابع: التسمية ، هي الفعل المركزي في بلاغة المسمِّي. فالمصطلحات التي توظف في الممارسات الخطابية ليست مجرد كلمات... وتندرج التسميات والشعارات في التجليين اللذين حددهما مكرو للسلطة وهما القمعي والإنتاجي.

المبدأ السادس: الغياب له نفس أهمية الحضور في فهم الفعل الرمزي وتقييمه. والنقطة الأساسية في هذا المبدأ هي: أهمية ما يقال ربما لا تماثل أهمية ما لا يقال في كثير من الحالات.

المبدأ السابع: ينطوي التشظي على إمكانية تعدد التأويلات وليس التأويل الأحادي.

المبدأ الثامن: النقد أداء. ويرتبط هذا المبدأ بكون البلاغة ممارسة، وليست منهجا للتحليل"[19].

هذه المبادئ تتسم "بالعمومية إلى درجة يمكن معها القول بأنها لا تخص البلاغة ولكنها قابلة لأن تنطبق على أية ممارسة معرفية تتخذ من الخطاب موضوعا لها ومن فلسفات ما بعد الحداثة إطارا معرفيا لها"[20].

" لقد ذهب مكرو إلى أن مقاومة السلطة يمكن أن تتم من خلال إنتاج معانٍ متعددة للخطابات، لكن إنتاج معاني متعددة للخطاب لا يؤدي إلى تجريد السلطة من ممارسها. فتعدد المعنى لا يقوض سلطوية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخطاب. على العكس من ذلك، يمكن القول إن سلطوية خطاب ما قد تُدعَّم بواسطة قدرته على خلق خليط من المعاني التي يسعى للتمويه بها، وربما كان ذلك وراء صفة الغموض التي تميز بعض أكثر الخطابات سلطوية، مثل الخطاب السياسي"[21].

بعد كل هذه الطروحات سنتوقف لنتساءل أين يجب أن تقف البلاغة العربية الجديدة ، هل سنؤسس لنقد بلاغي عربي انطلاقا من كل ما سبق؟ هل سنتوقف عن رصد كل ما يحمله النص الأدبي العربي الحديث من أساليب بلاغية و محسنات بديعية و، و،و...و؟ هل سنتركه لشانه لنتفرغ لخطابات تحتاج إلى اللغة البليغة لتصل و توصل؟ هل سنترك الخطابات الأدبية جانبا لننشغل بالخطابات غير الأدبية لنعطيها كامل الأهمية حتى تستوعب الآليات التي تتفاعل داخلها لتمارس سلطويتها؟ و نفس السؤال نوجهه للخطاب المعاكس أيضا.

يبقى هذا الطرح تجربة قابلة للتطوير و الدراسة و الاجتهاد أيضا في الدرس النقدي العربي .

الهوامش :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. فضل حسين عباس ، البلاغة فنونها و أفنانها، دار الفرقان للنشر، ط4، الأردن 1997، ص 18
2. ميخائيل نعيمة، الغربال، مؤسسة نوفل، ط13، 1983، ص18
3. صبري حافظ، قرن الخطاب النقدي، فصول، ع 70، ربيع 2007، ص 202
4. ابن منظور، لسان العرب، ج1، باب الباء
5. فضل عباس، البلاغة، فنونها و أفنانها، ص 13
6. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ص:5-6
7. صبري حافظ ، قرن الخطاب النقدي ،فصول ، ص 203
8. فضل عباس، البلاغة فنونها و أفنانها، ص 13
9. عماد عبد اللطيف، نقد بلاغة السلطة وتقويض سلطة البلاغة، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر،ع66 ، ماي 2011
10. نفسه
11. نفسه
12. نفسه
13. نفسه
14. نفسه
15. نفسه
16. نفسه
17. نفسه
18. عماد عبد اللطيف، المرجع نفسه
19. نفسه
20. نفسه
21. نفسه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com